التناص الأسطوري في "رواية الورم" لإبراهيم الكوني

أ.عبد الصمد جلايلي
أ.د. محمد بلقاسم
جامعة مستغانم (الجزائر)

الملخص:

هذا المقال يتضمن البحث في التناص الأسطوري في "رواية الورم" لإبراهيم الكوني، ويناقش بالتحديد الأساطير الثلاث وهي:

أسطورة "الفردوس: "الفردوس المفقود" هي أسطورة عرضتها كثير من النصوص التاريخية، تتحدث عن الجنة، في المفهوم التوراتي والمسيحي والإسلامي، وتجسد هذه قصة آدم وحواء وارتكابهما للخطيئة بأكلهما من الثمرة المحرمة، والتي أدت خروجهما من الجنة ونزولهما الأرض.

وأسطورة "كبش الفداء": هو عنوان أسطورة تروي قصة "أجاممنون" الذي ضحى بابنته العذراء "إيفيجينيا"، التي كان وعد بها الإلهة "أرتميس" تكفيرا عن خطئه الذي ارتكبه حينما ذبح العنزة المقدسة المنذورة للإلهة "أرتميس"، ولغضب الإلهة عليهم، خسروا خسارة كبرى في حرب طروادة المشئومة، مما جعل أسطوله البحري المتجه نحو طروادة يتعرض لرياح شديدة التي كلفته خسائر بشرية ومادية هائلة، فأخبر الكاهنُ "أجاممنون" أن يضحي بابنته العذراء "ايفيجينا"، لتكون كبش الفداء الذي سينقذ الأسطول من الهلاك.

وأسطورة "جلجامش": هي أسطورة هي ملحمة "جلجامش"، تعتبر من أشهر مؤلفات بلاد ما بين النهرين القديمة، تعود بمصدرها الميثولوجيا السومرية، التي ازدهرت على مدى أكثر من ألف سنة سواء في أشور أو بابل.

Summary:

This article includes a study of the mythological convergence of Abraham elkawni's "novel of the tumor" and specifically discusses the three myths:

The Myth of Paradise: Paradise Lost is a myth presented by many historical texts that speak of paradise in the biblical, Christian and Islamic concept. This story embodies the story of Adam and Eve and their sinfulness by eating the forbidden fruit, which led to their departure from heaven and descent.

The legend of the "scapegoat" is the title of a legend telling the story of Agamemnon, who sacrificed his virgin daughter, Eugenia, promised by Artemis to commit his sin when he sacrificed the sacred goat of Artemis. A great loss in the terrible Trojan War, which made his navy fleet heading to Troy was subjected to heavy winds, which cost him enormous human and material losses. He told the priest, Agamemnon, to sacrifice his virgin daughter Ivegina as the scapegoat that would save the fleet from perdition.

The legend of Gilgamesh is the legend of Gilgamesh, one of the most famous works of ancient Mesopotamia, the source of which is Sumerian mythology, which flourished over more than a thousand years in Assyria or Babylon

الأسطورة كلمة لها امتدادات في أي لغة منة لغات العالم، فهي توحي بالامتداد في الزمان وبالامتداد في المكان، وتوحي بالعطاء الزاخر للعقل البشري ولوجدانه المرهف، وتوحي بامتزاج الحلم بالحقيقة، وبالخيال الذي يثري واقع الحياة. ومن الأسطورة تسربت ألوان الأدب، ومنها تحرر فكر الإنسان ليبدع أشكال الأدب، وكانت الأسطورة أيضا دافعا إلى نشأة علوم حديثة، منها: الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا والسيكولوجيا[1].

إن الأسطورة في مفهومها العام هي محاولة لفهم ظواهر الوجود، وربط الإنسان بها، ولقد كان للطقوس الدينية

الدور البارز في نشأة الأسطورة، ولعل ممارسات الشعائر الدينية كالرقص أو الحركات المختلفة التي كان لها أيضا الجانب الفعال في النسج الكلامي لقصص الحكايات الشعبية، أو كانت تصويرا لممارسات الشعائر الدينية.

ومن هنا يقول **"هردر"** «إن الحكايات الشعبية بأسرها، ومنها الحكايات الخرافية والأساطير، هي بكل تأكيد بقايا المعتقدات الشعبية، كما أنها بقايا تأملات الشعب الحسية، وبقايا قواه وخبراته، حينما كان الإنسان يحلم لأنه لم يكن يعرف، وحينما كان يعتقد لأنه لم يكن يرى، وحينما كان يؤثر فيها بروح ساذجة غير منقسمة على نفسها»[2].

لعل تعريف "هاردر" يجمع بين التعاريف المختلفة للأسطورة، فالأسطورة في نظره هي تعبير عن بقايا المعتقدات الشعبية، وهي بقايا أحلام وتأملات الإنسان البدائي.

ويعتقد الباحثون أن الأسطورة لها جذور عميقة في العالم القديم، بل ولها جذور في كل آداب الدنيا وعند كل الشعوب، ولا تكاد توجد فكرة أسطورية ليس لها شبيه في مكان آخر وفي زمان آخر، على اختلاف واضح بين الزمانين والمكانين، قال "وليم جريم": « إن التشابه بين الحكايات الخرافية رغم ما يفصل بعضها عن بعض من مسافات زمنية ومكانية بعيدة، ليس أقل مما بين الشعوب المختلفة من أمور متشابهة رغم انفصالها، ويرجع بعض هذا التشابه إلى تماثل الأفكار الأساسية عند هذه الشعوب، وإلى وسيلتهم في عرض شخصيات بعينها، كما أن البعض يرجع إلى ما عندهم من وقائع متشابهة، وإلى طريقتهم في إيجاد تفسير له»[3].

وقد نتساءل عن خلو التراث العربي من الأساطير، فيرد الباحثون هذا الفراغ إلى أن الإسلام حارب هذا التراث بوصفه تراثا وثنيا يتناقض ومبادئه، وقد يرجع إلى أن العصر الجاهلي الذي وصلتنا أخباره وشهد عصر البعث والرسالة المحمدية لم يكن من عصور السذاجة التي ترعرعت فيها مختلف الأساطير[4].

ويحاول بعض الباحثين أن يثبتوا الجذور الأسطورية العربية اعتمادا على ما ورد في القرآن الكريم من آيات فيها إشارات إلى الأسطورة في تاريخ الجاهلية، كحديثهم عن الأصنام، مثل: هبل، واللات، والعزى، ومناة، وأسطورة إساف ونائلة كما ورد في حديث ابن هشام حيث قال: «كان إساف ونائلة رجلا وامرأة من جرهم، ... هو إساف بن ريغي، ونائلة بنت ديك...تفحش إساف فمسخهما الله حجرين»[5].

بل ويذهب بعض الباحثين إلى أنه من الجهل والعبث أن نصدق ادعاء بعض الدارسين الغربيين بخلو التراث العربي من الأسطورة، لأنه ورد تأكيد الأسطورة في التاريخ العربي القديم، وهي مذكورة صراحة في القرآن الكريم. فيقول أحمد كمال زكي: « ونعجب بعد هذا كله أن يقول أغلب الدارسين: إن العرب لم يكونوا من أصحاب الملكات الخلاقة التي تعتمد الخيال الواسع، مع أن مراجعة عاجلة حتى في كتاب النقائض تبين أنهم لم يكونوا ينقصهم شيء مما حفلت به أساطير الإغريق، وما أشبه "المينوطور" الحيوان الخرافي الذي كان نصفه الأسفل نصف عجل، ونصفه الأعلى نصف رجل، له أنياب الأسد، وقد قتله "ثيسيوس"، بالغول الذي طالما عُرِضَت في أشعار شجعان العرب، وهم يقطعون الصحراء»[6].

ومهما يكن من اختلاف في مفهوم الأسطورة، وفي تاريخها، وفي بيئتها، فإن الأسطورة عالم متميز عن غيره من العوالم، فهي تروي لنا بدايات الكون وما يحيط به من قضايا الخلق، حيث ترصد الأسطورة للقارئ بداياته بجميع التفاصيل الدقيقة، إذ تتحدث عن خلق الكائنات الحية، بدء بالإنسان وما يتعلق به، والحيوان وتفاصيل حياته، محاولة أن يقترب وصفها من الواقع. لذلك يمكن أن نقول إن «الأسطورة وأشكال حضورها تيمة أساسية في أعمال الكوني عامة»[7]، ولا سيما "رواية الورم"، التي تعد من أعمال "إبراهيم الكوني" الأكثر انتشارا ومقروئية في العالم العربي، ولبيان النماذج الأسطورية من "رواية الورم" ينبغي أن نتحدث عن ثلاثة أنواع من النماذج الأسطورية، وهي: أسطورة "الفردوس المفقود"، وأسطورة "كبش الفداء"، وأسطورة "جلجماش"،

1_ أسطورة "الفردوس المفقود": هناك عدة أساطير تحدثنا عن "الفردوس المفقود" الذي هو الجنة، في المفهوم التوراتي والمسيحي والإسلامي، وتجسد هذه قصة آدم وحواء وارتكابهما للخطيئة بأكلهما من الثمرة المحرمة، والتي أدت خروجهما من الجنة ونزولهما الأرض. ومن بين الأساطير القديمة التي تجسد هذه القصة:

أ- أسطورة "دلمون": وهي السومرية، التي تتحدث عن أرض "دلمون" وهي الجنة السومرية كما سميت، حيث كان يعيش "إنكي" إله الماء العظيم، وزوجته "ننخرساج" الأرض-الأم، وقد أخرج "إنكي" ماءه وسقى تربة زوجته الأرض، فحول "دلمون" جنة إلهية خضراء، ومن اتحاد الماء "انكي" بالتربة "ننخرساج" يمتلئ الفردوس بالحقول والأشجار والثمار.

تقوم "ننخرساج" بخلق ثمانية أنواع من النباتات العجيبة، إلا أن "إنكي" يقوم بإرسال رسوله ليقطف له تلك النباتات فيأكلها جميعها، مما يؤدي غضب "ننخرساج"، وتقوم بلعن"انكي" مما يؤدي إلى مرضه، وتهاجمه ثمانية علل، بعدد النباتات التي أكلها، إلا أن "ننخرساج" تخضع لضغط الآلهة بمعالجة "انكي" فتقوم بخلق ثمانية آلهة[8]، بعدد الأوجاع التي يعانيها "انكي" ومن بينها الإلهة "ننتي"[9] التي هي الإلهة التي تعالج وجع ضلعه[10].

ب- **أسطورة "آدبا":** وهي أسطورة بابلية، و"آدبا" هو الأول الذي خسر الخلود بسبب غلطة، وهذه الغلطة رغم أنها ترجع إلى سوء تفاهم، وسوء نية الإله الذي خلقه، إلا أنها في نتائجها تتلاقى مع نتائج خطيئة آدم، فكلاهما خسر الحياة الأبدية وجلب الموت على ذريته ويلاحظ تشابه الأسماء، "آدبا"،آدم. فقد خلق الإله "آدبا" لخدمته، وجعله عاقلا وأسبغ عليه الحكمة الكاملة، وفي أحد الأيام كان يصطاد، وهبت رياح الجنوب، فقلبت قاربه، ورمت به في الماء، فلعنها وكسر أحد جناحيها، ولم تستطيع الهبوب مرة ثانية، وبعد مرور أيام من اختفاء ريح الجنوب، دعي "آدبا" للمثول أمام كبير الآلهة "آنو" لاستجوابه، وقبل صعوده زوده خالقه بمجموعة من النصائح، ومن بينها عدم أكله من طعام الموت وماء الموت اللذان سيقدمان له في السماء.

وعند مثول آدبا أمام "أنو" تم العفو عنه، بالإضافة منحه مكافأة، وهي ضمه صف الخالدين، وقدم له طعام الحياة، وماء الحياة، إلا أن "آدبا" رفض الطعام والشرب امتثالا لنصائح خالقه، وذلك ما أزعج "انو"، حيث قام بإعادته الأرض، وبذلك خسر الحياة الأبدية.[11]

فأسطورة "الفردوس المفقود" كان لها الحظ الأكبر من "رواية الورم"، فمضمون الأسطورة أنها تتحدث عن خلق أول إنسان، وهو آدم بصحبة حواء في الجنة، وهي حكاية الحياة الأولى لهما، وعن خسارة "آدم" للخلود في الجنة، فقد خسر الحياة الأبدية، وجلب الموت لنسله في الحياة الدنيا، والسبب الرئيس في هذا الجزاء هو أكله من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها، حيث قال الله تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجُك الجنَّةَ وكُلَا منها رَغداً حيث شِئْتُما ولا تَقْرَبا هذه الشَّجرَةَ﴾[12]، وهنا لم تغب غواية إبليس عنهما من أكل ثمار الشجرة، فأكل آدم وحواء من الشجرة المنهي عنها، أو من الشجرة المحرمة عليهما، وكانت عاقبتهما أن أهبطا من الجنة إلى الأرض، وفي هذا المعنى قال الله تعالى: ﴿فأزلَّهمَا الشَّيطانُ عنها فأخْرَجهُما مِمَّا كانا فيه، وقلنا اهْبِطُوا بَعْضُكم لبعْضٍ عَدُوٌّ ولكُمْ في الأرضِ مُسْتقَرٌ ومَتَاعٌ إلى حينٍ﴾.[13]

إن أسطورة "الفردوس المفقود" مبدؤها الأساس هو الخطيئة، لأن الخطيئة هي علة عقاب آدم وحواء، وهو خروجهما من الجنة، أي خروجهما من الفردوس. والخطيئة عند "أساناي" هي التي تؤرقه ويحار فيها فكره، ومن تلك الخطايا التي يعيشها "أساناي" لباس السترة الجلدية التي تعد عنده بديلا عن الجلد البشري، أو جلدا على جلد في الجسم البشري، لأنه « لم تعد الخِلْعة تتشبث بالبدن، لم تعد السترة الجلدية لباسا لصيقا بالجسد كما تخيل في البداية، ولكنها صارت جلدة بديلة لجلدة الجسد، صارت جلدة الجسد»[14].

حاول"أساناي" أن يهرب من واقعه إلى الأحلام في المنام، فـــ«ـــقرر أن يغفو فربما جاء الخلاص بالمنام

كما جاء القصاص بالمنام»[15]، ولكن"أساناي" لم يتحرر من وسوسة الخِلعَة التي ارتداها، وشرع يردد أسئلة عنها في صورة تشبيهات مختلفة،« كأن الخِلْعَة هي خلعة حقا، كأن الخِلْعَة مجرد ثوب ككل الأثواب التي يمكن أن تلبس في وقت الفرح، وتخلع في زمن النوح، كأن الخِلْعَة هبة من أحد الرعاع، وليست هبة من الزعيم العظيم، كأن الخلعة ليست حقا أبديا مكتسبا، كأن الخِلْعَة دمية من دمى الأطفال وليست علامة مستعارة من السماء... كأن الخِلْعَة لم تعد كما كانت دوما في ناموس القبائل ولجانا يبيح استعارة دور الزعيم نفسه، وربما الدور الذي يفوق دور الزعيم »[16] هذه التشبيهات التي تحمل أسئلة مغلفة تطرح بإلحاح لفك لغز الخِلعة التي يرتديها "أساناي"، إلى أن أيقن بعد هذا العمر أن السلطان ليس الغنيمة التي تستطيع أن تحقق السعادة للإنسان »[17].

فالخطيئة المعنية هنا هي الخِلْعة، لأن الإنسان حين ولادته يولد بدون لباس، لأن « اللباس في أصله علامة خطيئة لأننا ولدنا عرايا ليكون لنا جلدنا لباسا، كما ولدنا من بطون أمهاتنا أحرارا»[18].

إن الخِلْعة الخطيئة ما هي إلا «جنس لباس، واللباس في ناموس الصحراء يجب أن يكون جلدة الإنسان التي ولد بها ككل حيوان، لا جلدة يستعيرها من الأغيار، مادامت طبيعة الإنسان مستعارة من طبيعة صحرائنا، والخطيئة هي أن نفتش عن جلباب أغراب نرتديه بديلا عن جلدتنا»[19]، إنها خطيئة السعي وراء ماديات هذا العالم المدنس، لأن تلك الخلعة هي رمز للحياة، فسعي الإنسان إلى ارتداء الخلعة هو سعيه في واقع الأمر إلى ماديات الحياة إلى ترفها وسلطتها.

فالحياة هي طريدتنا، «لأن الخلعة كانت الحيلة الوحيدة التي شلت فيه الإحساس، شلت لا فيه الداء الذي لم يعثر له على ترياق، بل لم يعثر له حتى على اسم فكيف بالترياق؟ ويقال: إن هذا الضرب من الداء هو الذي هلك الخلق في ذلك الزمن البعيد الذي كانت فيه الصحراء بستانا سخيا، ولم تتقلب صحراء بعد، في ذلك الأوان كان كل شيء في متناول اليد، ولا يحتاج المخلوق لأي عناد لكي يفوز بكل ما اشتهى أو أراد»[20]، فالخطيئة حالت بين "أساناي" وبين مبتغاه، لذلك كان غارقا في الملذات الدنيوية، مما جعله عرضة لتهديدات الموت.

هكذا عاش "أساناي" بطل "رواية الورم" في صراع متنوع، في صراع مع الأمس، ومع المستقبل، « يبحث عن بدائل فردوسية تنوعت بين الماضي والمستقبل، إذ سعى تارة نحو الماضي يتغنى بفردوسه المفقود، واتجه إلى المستقبل تارة أخرى، سيشرف فردوسه الموعود»[21].

وما يلاحظ في "رواية الورم" أن الشخصيات الفاعلة فيها تحيا في جو المحافظة على الناموس الصحراوي وتراث الأجداد، لأنه الحياة المقدسة عندهم.

إن الصحراء في روايات إبراهيم الكوني تمثل أرض الحقيقة، والتنبؤات، والثقافة، والفردوس الأول[22]، فهي العالم الميتافيزيقي البدائي الأول التي كانت منبعا للنبوءات.

ركز إبراهيم الكوني اهتمامه «على الطبيعة المشخصة في عناصرها البدائية الاولى، وهي: الأرض، الرمل، النبات، الحيوان، والماء[...] من أجل بناء نص ملحمي، يؤلف بين الإنسان[...] والطبيعة مما يعكس فلسفة الخلق وحقيقته الكبرى»[23]. فالصحراء وما تحمله من أبعاد دلالية هي عالم مجرد، وهي المكان المقدس الذي يمثل "الفردوس المفقود" في "رواية الورم".

2- أسطورة "كبش الفداء":

"كبش الفداء" هو عنوان أسطورة تروي قصة "أجاممنون" الذي ضحى بابنته العذراء "إيفيجينيا"، التي كان وعد بها الإلهة "أرتميس" تكفيرا عن خطئه الذي ارتكبه حينما ذبح العنزة المقدسة المنذورة للإلهة "أرتميس"، ولغضب الإلهة عليهم، خسروا خسارة كبرى في حرب طروادة المشئومة، مما جعل أسطوله البحري المتجه نحو طروادة يتعرض لرياح شديدة التي كلفته خسائر بشرية ومادية هائلة، فأخبر الكاهنُ "أجاممنون" أن يضحي بابنته العذراء

"ايفيجينا"، لتكون كبش الفداء الذي سينقذ الأسطول من الهلاك، والذي سينجيه من الغرق المحقق، وسيمنحه مجدا وخلودا، أما "ايفيجينيا" التي اختارتها الآلهة فداء للوطن، كانت تدري أن حياتها ثمينة، ولكن إنقاذ الوطن أولى من بقائها على قيد الحياة، فرضيت أن تقدم حياتها فداء لوطنها، فصعدت مذبح الربة "أرتميس" وضحت بنفسها. وعليه أصبحت "ايفيجينا" رمز التضحية، ورمز المواطن الصالح.[24]

ولرواية "كبش الفداء" مثال في "رواية الورم"، فرمز "كبش الفداء" هو الرسول الذي وجد في « في قبو تحت الأرض تدب في أرجائه مخلوقات مشؤومة في عرف أهل الصحراء هي الأرانب، كانت تجوس في ظلمات المكان الليل كله، تدق الأرض بأرجلها، وتطلق أصواتا مكتومة، ولكنها كئيبة كأنها تبوءات سوء»[25]، فكانت نهاية رسول الزعيم هي هذه الحالة المأساوية التي آل إليها، لأنه أخبر عن الحقيقة، و«كل من احترف الحقيقة فهو ضحية شاء أم أبى»[26]، فهو يدرك أن مصيره هو قدره، ويرى أن هذا المصير أهون عنده من حياة يخون فيها رسالته، بالرغم من أنه تعلم أن لا بديل لهذه الحياة،[27] لذلك تحمل النتائج كاملة، دون أن يشرك أحدا معه في العقاب،

لأنه يعلم أن «الرسول ليس في حاجة لكبش فداء، لأن الرسول لم يوجد إلا ليكون كبش فداء !»[28].

فمصير الرسول بهذه الهيئة، أي أنه كان كبش فداء، لأنه بلَّغ رسالة الزعيم القاضية بخلع الخلعة عن مريدها، عن طريق السلخ، هذا الأمر لم يتقبله "أساناي"، واتهم الرسول بالبهتان والكذب أمام الملأ، فمثل بهذا دور الجلاد، وكان الضحية هو الرسول، واختار هذا المصير كما اختارت ابنة أجاممنون" مصيرها ضحية "كبش فداء"، وبهذا تشابه المصيران، مصير ابنة أجاممنون" ومصير رسول الزعيم.

وفي رواية الورم يمثل الضحية أيضا "أساناي" فهو في حد ذاته ضحية لأطماعه ولاستبداده، وإنكاره لحقيقة وجود الزعيم، وهو نكرانه للناموس، كذلك أحب هبة الزعيم لأنها في اعتقاده تمنحه دور الزعامة، إنه إنسان الرذيلة، فوقع ضحية رذيلة أخرى لها، على الرغم من أنه كان يرفض الانتماء إلى فصيلة أكباش الفداء، إلا أن الواقعة وقعت به على الرغم من أنفه، لأن القدر أراد ذلك، وتحدد مصيره بالورم الخبيث.

3- أسطورة "جلجامش":

هي أسطورة ذكرت في ملحمة تحمل نفس الاسم، وهي ملحمة "جلجامش"، تعتبر من أشهر مؤلفات بلاد ما بين النهرين القديمة، تعود بمصدرها الميثولوجيا السومرية، التي ازدهرت على مدى أكثر من ألف سنة سواء في أشور أو بابل. عثر عليها مجزاة عدة أجزاء في مكتبة الملك الآشوري "أشور بانيبال" (629-669) قبل الميلاد، ويضم كل جزء منها، ما يقارب ثلاثمائة بيت من شعر.

تحكي هذه الملحمة الطويلة مغامرات أحد ملوك "أوروك" في غابر الأزمان وهو "جلجامش" Gilgamesh الذي اشتهر مآثره التي حققها، والصعوبات التي تغلب عليها والذي امتدت فترة حكمه قرابة 127سنة، وهو يعتبر الملك الخامس في السلالة الأولى بعد الطوفان.

هناك العديد من الروايات حول هذا الملك فمنها ما يحكي صراع "جلجامش" مع ملك "أكا" agga في "كيش" kish، ومنها ما يسجل الحملة التي شنها ضد "هومبابا" حارس غابة الأرز، وفي موقع آخر يشيد بقتال البطل الذي هو "جلجامش" مع "الثور الإلهي" الذي أرسلته الإلهة "إنانا" ليقتله، حيث انتهى القتال بقتل "جلجامش" للثور الإلهي.[29]

تعرض هذه الملحمة الوقائع التي ارتبط بها اسم "جلجامش"، في سعيه الكشف عن سر الحياة الأبدية، وسعيه لمجابهة القلق أمام المصير المحتوم، والجهود العملاقة واللامجدية التي بذلها، لتجاوز هذا المصير المحتوم، الذي هو الموت والذي خطف أمام عينيه الصديق الذي رافقه في مغامراته، وحقق معه أعمال البطولة، فهذه الملحمة هي تمجيد للصداقة والشجاعة، وتمجيد للأمومة، وذلك في علاقة جلجامش بأمه، في دروب القرب والرعاية والنضج[30].

أسطورة "جلجماش" من الأساطير الخالدة في التاريخ، حيث لا تنسى ذكرا في القصص الأسطوري قديما وحديثا،

وهي من أكثر الأساطير التي تبحث عن الخلود، ولكونها أقدم الأساطير التي تبحث عن الخلود أضحت رمزا له وأيقونة للأساطير كلما ذكرت أسطورة "جلجماش"، ولذلك يمكن أن نقول: إن هذه الأسطورة « تجاوزت زمانها لتستمر أكثر من أربعة آلاف عام [...] هي مزيج من البطولة والمغامرة مع الأخلاق والمأساة، تتحدث عن ملك سومري، حكم مدينة "أورك"• يدعى "جلجامش"*؛ أي الثور الجليل، وهو بطل تصفه الأسطورة رمزيا، بأنه ذو أوصاف خرافية بصفة إنسان، ونصفه الآخر إله، كان في أول أمره باغيا وطاغية على أهل مدينته [...] وكان طافح الشهوة، أزعج سكان "أورك"، فقد كان ينتهك الحرمات، حتى ضج الناس من أميرهم، واشتكوا من جموحه وغروره، فبعثت القوى الإلهية نقيضه "انكيدو" ليعارضه ويصارعه، وبعد صراع ومواجهة شديدة بين الاثنين تغير فكر "جلجامش" ليتعاهد الرجلان على أن يكونا صديقين وفيين لبعضهما مدى الحياة، وتبدأ مغامرتهما للوصول إلى بلاد قوى الأرباب والمدبرين، أو أرض الخلود، وهنا تدخل القصة في فصل من نوع آخر يغلب عليه البطولة والخوارق، [...] ثم الموت الدرامي لصديقه "أنكيدو" ومحاولة "جلجامش" في رحلته الثانية قهر الموت، والوصول إلى أرض الخلود وتختم الأسطورة بالنهاية المأساوية "لجلجامش" وعجزه عن تحقيق حلمه»[31] .

هكذا كانت أسطورة "جلجماش" التي طال أمدها أربعة آلاف سنة، والتي كانت مزيجا من البطولة والمغامرة مع الأخلاق والمأساة، أو هي صراع بين "جلجماش" "أنكيدو" وكلاهما يتصارعان مع الحياة ومحاولة قهرها، وكل منهما بطريقته الخاصة.

فالأسطورية في "رواية الورم" تتجلى في كون "جلجامش" شخصا ذا صنفين مختلفين: جزء منه إنسان، وجزء أخر إله، ومن أوصافه أنه كان باغيا متجبرا، على أهل بلدته، فأرسلت إليه القوى الإلهية "أنكيدو" ليعارضه، وسرعان ما تصالحا وصارا صديقين، ودخلا في بلاد قوى الأرباب والمدبرين، أو أرض الخلود، وهنا تدخل القصة في فصل من نوع آخر يغلب عليه البطولة والخوارق كما يقول الكوني.

فأسطورة "جلجامش" وظفها الروائي إبراهيم الكوني في رواية "الورم" لتدل على الهروب من مصير البطل، ولتدل على البحث عن الخلود الأبدي، وعن الفرار من العقاب، على الرغم من وقوع البطل في الخطيئة، وكذلك وظفت للدلالة على البحث على دواء يشفي بطل الرواية "أساناي" من علته التي أصابته، وهي لا سبيل له من التخلص من العلة إلا بالتستر بالأرض، كما يقول الكوني: « لأن كل ما علا الأرض احترق بنور السماء، ولا عاصم من الزوال إلا ما تستر بالأرض»[32].

ولقد حاول البطل في الرواية إلى الاختفاء والتستر بهذه الكيفية يعتقد أنه ناج من العقاب، ولكنه لم يكن من فئة الناجين، فأن تكون ناج « لا بد أن تعبد كباش الفداء، أما أنت فلا أخالك من فئة تقبل الانتماء إلى حزب أكباش الفداء»[33]، فإذا انتمى إلى حزب أكباش الفداء سيكون فرحا به، وهو مصيره المحتوم.

فكر"أساناي" أن يحتجب، وقال له مستشاره ضيف الغرباء: « إذا أردت أن تتخذ لنفسك حجابا من جنس يعول عليه فاستجر بأمك الأرض »[34]، ثم ابتسم ضيف الغرباء وقال: « أستطيع أن ألفق لك الحجاب الذي ينطق جمالا من الحجر الأخرس، أستطيع ان ألفق لك الحجاب الذي لم تشهد الصحراء لجماله مثيلا، شريطة أن تضع بين يدي ما يتطلبه حجاب ٌ كهذا من مال»[35]

كان بناء الحجاب فكرة من الداهية ضيف الغرباء بعدما عجز "أساناي" عن إيجاد حل لنفسه « هذا العجز حول حياته كلها إلى كابوس، أشبه بالوفاة، فأيقن أن الموت ليس أن نموت، ولكن الموت هو أن نفقد الأمل، الموت هو أن نعجز عن الحلم، هو أن نجهل لماذا جئنا؟ لا لماذا نذهب ؟ فهل هذا هو ما يسميه الناس فشلا ؟ أم أن هذا الإحساس هو مرض يستوجب الاستشفاء ؟»[36],

هكذا كان يشعر "أساناي" بشعور مبهم بالخطر وبالقصور في الاعتراض على القدر الذي أصابه، وغامض

غموض الموت بحقيقته كمخلوق مهجور ووحيد في دنياه.

ومما زاد مريد الحجاب "أساناي" دهشة وضعفا هو قلة المال الذي أراده باني الحجاب "ضيف الغربـــاء"، حيـــث قلت الموارد المالية على مريد الحجاب "أساناي"، على الرغم من تضاعف المكوس على الناس، ولكن أشار عليه "ضيف الغرباء" بإضافة المكس على الماء، لأن الماء في الصحراء كنز، و«هل هناك في الصحراء كنز أنفس من الماء؟»[37]، لم يقتنع مريد الحجاب بإقرار رسوم على الماء، مع كثرة الحجج التي قدمها ضيف الغرباء، ولـــم يقتنـــع أيضـــا بجمـــال الحجاب، وهو مختف عن الأنظار، إذ قال: « الحق أني لا أعرف كيف يكون الحجاب أعجوبة جمال إذا كان مختفيا عن الأنظار »[38] ، وأخيرا حاول ضيف الغرباء إقناعه بأن الجمال قد يستتر، كما يستتر جمال المرأة بلباسها، كقوله: « هـــل تستطيع أن تتحدث عن جمال امرأة إذا تعرت فتبدت سوأتها؟»[39]، طبعا يتلاشى في هذه الحالة جمـــال المـــرأة ويغيـــب بهاءها عن الأنظار.

بهذه الأحداث المتشابهة بين أسطورة "جلجامش" وبين "أساناي" بطل "رواية الورم" فكلاهمـــا فـــي الـــروايتين يبحثان عن الخلود، ولن محاولاتهما كانت تبوء بالفشل، وكانت النتيجة عندهما أن الموت مصيبة لابد منها، وهي النهاية المأساوية التي تكون نهاية كل بشر.

إن إبراهيم الكوني وظف في روايته "الورم" الأساطير لكي تعينه « على معرفة ما قد حدث في الأصل معرفـــة ولادة العالم تمنحنا العلم بما سوف يحدث في المستقبل، إذ تحرك أصل العالم، من الماضي إلى المستقبل تتـــرجم أصـــل الإنسان بأن عالمه سوف يبقى دائما حتى لو دمر دوريا»[40]، لأن العالم في تجدد، وفـــي حركـــة دائمـــة، مثلـــه كمثـــل الأسطورة التي من شأنها التجرد من الزمن، ومن صفاتها أيضا الخلود، لأنها تقوم على عنصر الإدهاش والمبالغـــات، وبهذه الصفات يمكن أن تتحول الأسطورة إلى رواية في واقع الأدب.

إن رواية "الورم" على وجه الخصوص تهتم بالأسطورة، لأنها تتحدث في موضوعاتها عـــادة علـــى المعتقـــدات الشعبية لأهل الصحراء، وعن مدى تأثيرها في وعي الجمهور، ولعل الدافع إلى توظيف الأساطير في روايات "إبـــراهيم الكوني" هو اهتمامه بتصوير المجتمع الصحراوي، وبالنظام القبلي الليبي الذي يكون في غالب الأحيان شـــبيها بالنظـــام البدائي الذي يسهم في إيجاد الفضاء الخصب والمساعد على بناء الأساطير، لأن الصحراء تمثل العالم المقدس الذي يمتد إلى ما لا نهاية، كامتداد هذا الكون في الحاضر وفي الماضي، هذا الكون الذي تحكمه قوى خفية، وهـــو مـــا حاولـــت الأسطورة تبيانه، وهكذا سارت الرواية على نهج الأسطورة لتبني واقعا ملحميا.

الإحـــــالات

[1]- فاروق خورشيد، أدبب الأسطورة عند العرب، مكتبة الثقافة الدينية، ط: 1، القاهرة، 2004، ص: 03

[2] - فاروق خورشيد، أدبب الأسطورة عند العرب، ص: 4

[3] - فاروق خورشيد، أدبب الأسطورة عند العرب،، ص: 5

[4] - أحمد كمال زكي، الأساطير – دراسة حضارية مقارنة، دار العودة، بيروت، ط:2، 1979، ص: 71

[5]- فاروق خورشيد، أدبب الأسطورة عند العرب،، ص: 12

[6]- أحمد كمال زكي، الأساطير، ص: 77

[7]-عقيلة الطيب، المقدس والمدنس في رواية المجوس، إبراهيم الكوني، دراسة في الشكل والتاويل ، مقدمة لنيل شهادة الماستر في الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2013-2014، ص:91

[8]- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة، دار علاء الدين، دمشق، ط:11، 1996، ص: 240

[9]- كلمة "تنتي" في السومرية قسمت "تن" والتي تعني سيدة، و"تي" وتعني ضلع، كما أنها تعني "أحيا" أو "جعله يحيا"، فيكون اســـم آلهة "تنتي" يعني سيدة الضلع أو السيدة التي تحي، وهذه السيدة تشبه حواء. فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص: 240

[10]- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص: 240
[11]- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص: 242
[12]- سورة البقرة، الآية، ص:35
[13]- سورة البقرةـ الآية:36
[14]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:36
[15]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:36
[16]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:36
[17]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:39
[18]- إبراهيم الكوني، الورم، ص: 79
[19]- إبراهيم الكوني، الورم، ص: 79
[20]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:84
[21]- مديحة عتيق، أسطورة العالم الآخر في الشعر الحديث والمعاصر، دار ميم، الجزائر، ط:01، 2010، ص:169
[22]-علال سنقوفة، مخيال الصحراء في روايات إبراهيم الكوني، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، تخصص اللغة العربية وآدابها، الجزائر، 2007_2008، ص:193
[23]- المرجع نفسه، ص:13
[24]- ينظر عبد المعطي الشعراوي، أساطير إغريقية، أساطير البشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ب، ج:01، دط، 1983، ص:335
[25]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:131
[26]- إبراهيم الكوني ــ الورم، ص:132
[27]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:132
[28]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:147
[29]- رينيه لابات وآخرون،تر: مفيد عرنوق، سلسلة الأساطير السورية، ديانات الشرق الأوسط، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط: 02، 2006، ص:169-170
[30]- ديوان الأساطير، سومر وأكاد وآشور، ص: 238
• رمدينة جنوب العراق، كما جاء في الأسطورة.
* ملك سومري
[31]- مجموعة من المؤلفين، الأسطورة، توثيق حضاري : سلسلة عندما نطلق السراة، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط:01، 2009، ص: 46
[32]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:149
[33]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:150
[34]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:149
[35]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:150
[36]- إبراهيم الكوني، الورم، ص: 81
[37]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:152
[38]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:155
[39]- إبراهيم الكوني، الورم، ص:155
[40]- مرسيا الياد، مظاهر الأسطورة، تر: نهاد خياطة، دار كنعان، دمشق، سوريا،ط:01، 1991، ص:74